مَعْنَىٰ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾

وَمَعْنَىٰ (تَوَاصَوْا) أَيْ: تَحَاثُّوا؛ أَوْصَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَحَثَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

(بِالحَقِّ): وَ(الحَقُّ): هُوَ مَا تَقَرَّرَ مِنْ حَقِيقَةٍ ثَابِتَةٍ أَرْشَدَ إِلَيْهَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ، أَوْ عَيَانٌ وَمُشَاهَدَةٌ، أَوْ شَرِيعَةٌ صَحِيحَةٌ جَاءَ بِهَا نَبِيٌّ مَعْصُومٌ.

وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ: أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بِمَا لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِنْكَارِهِ؛ وَهُوَ كُلُّ فَضِيلَةٍ وَخَيْرٍ.

(بِالحَقِّ) أَيْ: بِالتَّوْحِيدِ؛ كَذَا رَوَىٰ الضَّحَّاكُ عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما. وَقَالَ **قَتَادَةُ**: (بِالحَقِّ) أَيْ: بِالقُرْآنِ. وَقَالَ **السُّدِّيُّ**: **الحَقُّ** هُنَا **اللهُ** تَعَالَىٰ.

وَالحَمْلُ عَلَىٰ **الْعُمُومِ** أَوْلَىٰ.

أَيْ: وَصَّىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالحَقِّ الَّذِي يَحِقُّ الْقِيَامُ بِهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالتَّوْحِيدُ، وَالْقِيَامُ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ بِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابُ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ وَكُلِّ مَا نَهَىٰ عَنْهُ.

وَلَـمَّا كَانَ الإِنْسَانُ بَعْدَ كَمَالِهِ فِي نَفْسِهِ بِالأَعْمَالِ لَا يَنْتَفِي عَنْهُ مُطْلَقُ الخُسْرِ؛ إِلَّا بِتَكْمِيلِ غَيْرِهِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ وَارِثًا؛ لأَنَّ الأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- بُعِثُوا لِلتَّكْمِيلِ، وَكَانَ الدِّينُ لَا يَقُومُ وَإِذَا قَامَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ النَّاشِئِ عَنْ نُورِ القَلْبِ.

وَلَا يَتَأَتَّىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاجْتِمَاعِ، قَالَ مُخَصِّصًا لَـمَّا دَخَلَ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تَنْبِيهًا عَلَىٰ عِظَمِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾؛ أَيْ: أَوْصَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلِسَانِ الحَالِ أَوِ المَقَالِ؛ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: بِالأَمْرِ الثَّابِتِ، وَهُوَ كُلُّ مَا حَكَمَ الشَّرْعُ بِصِحَّتِهِ؛ فَلَا يَصِحُّ بِوَجْهٍ نَفْيُهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ أَوِ اعْتِقَادٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، فَيَكُونُوا بِذَلِكَ مُحْسِنِينَ.

وَلَـمَّا كَانَ الإِنْسَانُ مَيَّالًا إِلَىٰ النُّقْصَانِ؛ فَكَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ الإِحْسَانِ مُعَرَّضًا لِلشَّنَآنِ مِنْ أَهْلِ العُدْوَانِ وَهُمُ الأَغْلَبُ فِي كُلِّ زَمَانٍ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾، لأَنَّ الإِنْسَانَ يَنْشَطُ بِالوَعْظِ وَيَنْفَعُهُ اللَّحْظُ.

❁❁❁❁❁❁

وَالذَّنْبُ يَعْظُمُ إِمَّا لِعِظَمِ مَنْ فِيْ حَقِّهِ الذَّنْبُ أَوْ لأَنَّهُ فِيْ مُقَابَلَةِ النِّعْمَةِ العَظِيمَةِ، وَكِلَا الوَجْهَيْنِ حَاصِلٌ فِيْ ذَنْبِ العَبْدِ فِيْ حَقِّ رَبِّهِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ ذَلِكَ الذَّنْبُ فِيْ غَايَةِ العِظَمِ.

❁❁❁❁❁❁

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ إلخ بَيَانٌ لِتَكْمِيلِهِمْ لِغَيْرِهِمْ؛ أَيْ: وَصَّىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالأَمْرِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِنْكَارِهِ، وَلَا زَوَالَ فِيْ الدَّارَيْنِ لِـمَحَاسِنِ آثَارِهِ، وَهُوَ الخَيْرُ كُلُّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فِيْ كُلِّ عَقْدٍ وَعَمَلٍ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالرَّغْبَةِ فِي الآخِرَةِ.

وَلَعَلَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا ذَكَرَ سَبَبَ الرِّبْحِ دُونَ الخُسْرَانِ اكْتِفَاءً بِبَيَانِ المَقْصُودِ؛ فَإِنَّ المَقْصُودَ بَيَانُ مَا فِيهِ الفَوْزُ بِالحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَالسَّعَادَةِ السَّرْمَدِيَّةِ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ مَاعَدَا مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ خُسْرٍ وَنَقْصٍ حَظٌّ أَوْ تَكَرُّمًا؛ فَإِنَّ الإِبْهَامَ فِيْ جَانِبِ (الخُسْرِ) كَرَمٌ، لأَنَّهُ تَرَكَ تِعْدَادَ مَثَالِبِهِمْ وَالإِعْرَاضَ عَنْ مُوَاجَهَتِهِمْ بِهِ.

فَيَكُونُ تَكْرِيرُ ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ لِاخْتِلَافِ الفَاعِلَيْنِ، وَإِمَّا عَلَىٰ الأَوَّلِ فَالاِخْتِلَافُ المَفْعُولَيْنِ؛ وَهُمَا قَوْلُهُ: **بِالحَقِّ**، وَ**بِالصَّبْرِ**.

وَيُعْتَبَرُ (**التَّوَاصِي بِالحَقِّ**) مِنَ الخَاصِّ بَعْدَ العَامِ؛ لأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ الصَّالِحَاتِ.

وَقَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ فِي القُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الوَصِيَّةَ بِالحَقِّ تَشْمَلُ الشَّرِيعَةَ كُلَّهَا أُصُولَهَا وَفُرُوعَهَا، مَاضِيهَا وَحَاضِرَهَا؛ مِنْ ذَلِكَ: مَا وَصَّىٰ اللهُ بِهِ الأَنْبِيَاءَ عُمُومًا مِنْ نُوحٍ

وَإِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَمَنْ بَعْدَهُمْ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشُّورَى/ ١٣)، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الوَصِيَّةُ عَمَلَ الرُّسُلِ لأُمَمِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

❁❁❁❁❁❁❁

وَمِنْ خِلَالِ (التَّوَاصِي بِالحَقِّ) وَ(التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) تَبْرُزُ صُورَةُ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ -أَوِ الجَمَاعَةِ المُسْلِمَةِ- ذَاتِ الكِيَانِ الخَاصِّ، وَالرَّابِطَةِ المُمَيَّزَةِ، وَالوِجْهَةِ المُوَحَّدَةِ. الجَمَاعَةُ الَّتِي تَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَا هِيَ مُقْدِمَةٌ عَلَيْهِ مِنَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ الَّذِي يَشْمَلُ فِيمَا يَشْمَلُ قِيَادَةَ البَشَرِيَّةِ فِي طَرِيقِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، فَتَتَوَاصَىٰ فِيمَا بَيْنَهَا بِمَا يُعِينُهَا عَلَىٰ النُّهُوضِ بِالأَمَانَةِ الكُبْرَىٰ.

فَمِنْ خِلَالِ لَفْظِ (التَّوَاصِي) وَمَعْنَاهُ وَطَبِيعَتِهِ وَحَقِيقَتِهِ تَبْرُزُ صُورَةُ الأُمَّةِ -أَوِ الجَمَاعَةِ- المُتَضَامَّةِ المُتَضَامِنَةِ .. الأُمَّةِ الخَيِّرَةِ .. الوَاعِيَةِ .. القَيِّمَةِ؛ فِي الأَرْضِ عَلَىٰ الحَقِّ وَالعَدْلِ وَالخَيْرِ .. وَهِيَ أَعْلَىٰ وَأَنْصَعُ صُورَةٍ لِلأُمَّةِ المُخْتَارَةِ .. وَهَكَذَا يُرِيدُ الإِسْلَامُ أُمَّةَ الإِسْلَامِ .. هَكَذَا يُرِيدُهَا أُمَّةً خَيِّرَةً قَوِيَّةً وَاعِيَةً قَائِمَةً عَلَىٰ حِرَاسَةِ الحَقِّ وَالخَيْرِ، مُتَوَاصِيَةً بِالحَقِّ وَالصَّبْرِ فِي مَوَدَّةٍ وَتَعَاوُنٍ وَتَآخٍ تَنْضَحُ بِهَا كَلِمَةُ (التَّوَاصِي) فِي القُرْآنِ ..

وَ(التَّوَاصِي بِالحَقِّ) ضَرُورَةٌ؛ فَالنُّهُوضُ بِالحَقِّ عَسِيرٌ، وَالمُعَوِّقَاتُ عَنِ الحَقِّ كَثِيرَةٌ: هَوَىٰ النَّفْسِ، وَمَنْطِقُ المَصْلَحَةِ، وَتَصَوُّرَاتُ البِيئَةِ، وَطُغْيَانُ الطُّغَاةِ، وَظُلْمُ الظَّلَمَةِ، وَجَوْرُ الجَائِرِينَ ..

وَ(التَّوَاصِي) تَذْكِيرٌ وَتَشْجِيعٌ وَإِشْعَارٌ بِالقُرْبَىٰ فِي الهَدَفِ وَالغَايَةِ، وَالأُخُوَّةُ فِي العِبْءِ وَالأَمَانَةِ. فَهُوَ مُضَاعَفَةٌ لِمَجْمُوعِ الاتِّجَاهَاتِ الفَرْدِيَّةِ؛ إِذْ تَتَفَاعَلُ مَعًا فَتَتَضَاعَفُ .. تَتَضَاعَفُ بِإِحْسَاسِ كُلِّ حَارِسٍ لِلْحَقِّ أَنَّ مَعَهُ غَيْرَهُ يُوصِيهِ وَيُشَجِّعُهُ وَيَقِفُ مَعَهُ وَيُحِبُّهُ

وَلَا يَخْذُلُهُ .. وَهَذَا الدِّينُ -وَهُوَ الحَقُّ- لَا يَقُومُ إِلَّا فِي حِرَاسَةِ جَمَاعَةٍ مُتَعَاوِنَةٍ مُتَوَاصِيَةٍ مُتَكَافِلَةٍ مُتَضَامِنَةٍ عَلَىٰ هَذَا المِثَالِ.

وَ(التَّوَاصِي بِالحَقِّ) ضَرُورَةٌ؛ فَالنُّهُوضُ بِالحَقِّ عَسِيرٌ وَالمُعَوِّقَاتُ عَنِ الحَقِّ كَثِيرَةٌ: هَوَىٰ النَّفْسِ، وَمِنْطِقُ المَصْلَحَةِ، وَتَصَوُّرَاتُ البِيئَةِ، وَطُغْيَانُ الطُّغَاةِ، وَظُلْمُ الظَّلَمَةِ، وَجَوْرُ الجَائِرِينَ.

وَ(التَّوَاصِي) تَذْكِيرٌ وَتَشْجِيعٌ وَإِشْعَارٌ بِالقُرْبَىٰ فِي الهَدَفِ وَالغَايَةِ، وَالأُخُوَّةُ فِي العِبْءِ وَالأَمَانَةِ؛ فَهُوَ مُضَاعَفَةٌ لِمَجْمُوعِ الاتِّجَاهَاتِ الفَرْدِيَّةِ إِذْ تَتَفَاعَلُ مَعًا فَتَتَضَاعَفُ .. تَتَضَاعَفُ بِإِحْسَاسِ كُلِّ حَارِسٍ لِلْحَقِّ أَنَّ مَعَهُ غَيْرَهُ يُوصِيهِ وَيُشَجِّعُهُ وَيَقِفُ مَعَهُ وَيُحِبُّهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَهَذَا الدِّينُ -وَهُوَ الحَقُّ- لَا يَقُومُ إِلَّا فِي حِرَاسَةِ جَمَاعَةٍ مُتَعَاوِنَةٍ مُتَوَاصِيَةٍ مُتَكَافِلَةٍ مُتَضَامِنَةٍ عَلَىٰ هَذَا المِثَالِ.